الفصل السّابع

عقلية المسلمة مُستنيرة وراشدة ونزيهة من الخرافة

البحث الأول:

عقلية المرأة المسلمة مُتوقّدة مُستنيرة بالعلم

إنّ المرأة المسلمة مكلّفة كالرّجل، وعليها طلبُ العلم الذي ينفعها في دينها ودُنياها، وهي إذْ تقرأ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١) وتسمع قولَ الرسولِ الكريم ﷺ: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(٢) تُدرك أنّ هدي القرآن والسّنّة يشمل الرجلَ والمرأةَ على حدٍّ سواءٍ، وأنّها تُساوي الرجل في علوم «فرض العين» وعلوم «فرض الكفاية» منذ وُجد العلم في المجتمع الإسلامي.

ولقد أدركتِ المرأةُ المسلمة في ذلك المجتمع الربّاني قيمةَ العلم منذ الأيام الأولى للإسلام، فقالت نساء الأنصار للرسول الكريم صلوات الله عليه: «اجعلْ لنا يوماً من نفسِكَ نتعلّم فيه، فقد غَلَبَنا عنكَ الرّجالُ. فقال لهُنّ: «**موعدكُنّ دار فلانة**». فأتاهُنّ فيهنّ فوعظهنّ وذكرهنّ وعلّمهنّ(٣).

كانت المرأة المسلمة مقبلةً على طلب العلم، لا تستحيي من السؤال عن أحكام دينها، لأنها تسأل عن الحق، والله لا يستحيي من الحقّ. وقد وردت نصوص كثيرة تصوّر جرأةَ المرأة المسلمة، ونُضجَ شخصيتها، ورجاحة عقلها فيما وجهت من أسئلة إلى الرسول المعلّم العظيم ﷺ تبتغي بها التّفقّه في الدِّين.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) حديث حسن رواه ابن ماجه ١/ ٨١ في المقدمة.

(٣) فتح الباري ١/ ١٩٥.

فعن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية سألتِ النّبيّ ﷺ عن غسل المحيض، فقال: «**تأخذ إحداكُنّ ماءَها وسدرتها** [هو نبات طيب الرائحة، يتطهر به] **فتطهر، فتحسن الطّهور، ثم تصبّ عليها الماء، ثم تأخذ فرصةً ممسّكةً فتطهر بها**». قالت أسماء رضي الله عنها: وكيف تطهّر بها؟ فقال: «**سبحان الله، تطهرين بها؟**» فقالت عائشة رضي الله عنها، كأنها تخفي ذلك: تتّبعين أثر الدّم.

وسألته عن غسل الجنابة، فقال: «**تأخذين ماءَك فتطهرين، فتحسنين الطهور، وأبلغي الطّهور، ثم تصبّ على رأسها، فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسِها، ثم تفيضُ عليها الماءَ**»(١). فقالت عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النّساءُ نساءُ الأنصار لم يكن يمنعهُنّ الحياءُ أن يتفقّهنَ في الدِّين»(٢).

وجاءت أم سليم بنت مِلْحان، والدة أنس بن مالك إلى النّبيّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسْلٍ إذا احتلمتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، إذا رأتِ الماءَ**». فغطّت أم سلمة وجهها حياءً، وقالت: يا رسولَ الله، وتحتلم المرأةُ؟ قال: «**نعم، تربتْ يمينك، فيم يُشبهها ولدها؟**»(٣).

وفي رواية لمسلم أن أم سُليم جاءتْ إلى النّبيّ ﷺ وعنده عائشة رضي الله عنها، ولما سألته أم سليم قالت عائشة: يا أُمّ سُليم فضحْتِ النّساء، تربت يمينُكِ، فقال النّبيّ ﷺ لعائشة: «**بل أنتِ، فتربت يمينُكِ، فلتغتسلْ يا أم سليم إذا رأتْ ذلك**»(٤).

ولم تكن المرأة في جيل الصحابة الفريد تتردّد في استيضاح الحكم الشرعي من النّبيّ المشرّع ﷺ مباشرة السؤال بنفسها عمّا ينزل بها إن ارتابت في فتوى أحدٍ من الناس، أو لم تقتنع في صحة فتواه، فكانت تتحرى الدّقة في فهم المسألة حتى تصل إلى اليقين، وهذا شأن المرأة الذكية الواعية الفطنة الحصيفة.

---

(١) فتح الباري ١/ ٤١٤.
(٢) فتح الباري ١/ ٢٢٨.
(٣) فتح الباري ١/ ٢٢٨.
(٤) صحيح مسلم ٣/ ٢٢٠.

وقد تجلّى هذا كله في صنيع الصّحابية سُبيعة بنت الحارث الأسلمية، إذ كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تنشب [أي لم تلبث] أن وضعتْ حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها [أي طهرت] تجملّتْ للخُطّاب، فدخل عليها أبو السّنابل بن بعكك [رجل من بني عبد الدار] فقال لها: ما لي أراك تجمّلتِ للخُطّاب، ترجين النكاح؟ فإنّك والله ما أنتِ بناكحٍ حتى تمرّ عليكِ أربعة أشهر وعشر، قالت سُبيعة: «فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، وأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأنّي قد حللتُ حين وضعتُ حملي، وأمرني بالزّواج إذا بدا لي»(١).

ولقد كان لدقة سُبيعة في استيضاح الحكم الشرعي، وتحرّي اليقين فيه فضل وخير وبركة وفائدة، لا لسبيعة نفسها فحسب، بل للمسلمين قاطبة إلى يوم الدِّين، إذ أخذ بحديثها جماهير العلماء من السلف والخلف، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، فقالوا: عدّة المتوفى عنها زوجُها (الحامل): بوضع الحمل، حتى لو وضعت بعد موت زوجها بلحظة قبل غُسلهِ انقضتْ عدّتُها، وحلّت في الحال للأزواج(٢).

فما أعظم ما قدمت سُبيعة لعلماء الأمة الإسلامية من حجةٍ ودليلٍ بحرصها على استيضاح الحكم الشرعي، وتحرّيها الدقة في فهمه، ووصولها إلى اليقين فيه.

لقد أوجب الإسلام على المرأة طلبَ العلم كما أوجبه على الرّجل، إذْ قال رسول الله ﷺ: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(٣). أي على كل إنسان مسلم نطق بالشهادتين سواء أكان رجلاً أم امرأةً، فلا غَرْوَ أن نجد المرأة المسلمة توّاقةً إلى العلم، مقبلةً عليه، مهتمةً بتفهّم مسائله، والمرأة المسلمة الواعية هَدْيَ

(١) فتح الباري ٧/ ٣١٠.
(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ١٠/ ١٠٩.
(٣) حديث حسن رواه ابن ماجه ١/ ٨١ في المقدمة.

دينها في كل زمان ومكان تُدرك أهميَّةَ تحلّيها بالعلم النّافع، وأثره في شخصيتها، وأولادها وأسرتها ومجتمعها، فتقبل عليه بنفس راغبة مطمئنة متعطّشة إلى الحصول على ما ينفعها منه في دينها ودُنياها.

على أن أبواب العلم مفتَّحة أمام المرأة المسلمة، تلج ما تشاء منها وتتحلّى بحلية العلم الثمينة، ما دام ذلك لا يخلّ بأنوثتها وطبيعتها بل يزيد عقلها تنوّراً ومشاعرها إرهافاً، وشخصيتها تألّقاً ونموًّا، وإنّها لواجدة في تاريخ الأعلام من النّساء المسلمات نماذج نادرة في الإقبال على العلم والعبّ من كنوزه، والتضلّع فيه.

فقد كانت أمّ المؤمنين السّيّدة عائشة رضي الله عنها المرجعَ الأوّل في الحديث والسّنّة المطهرة، والفقيهة الأولى في الإسلام، وهي في مَهْدِ الصِّبَا وريعان الشّباب، لم تَخْطُ إلى التّاسعة عشرة. ولقد بقيت بعد رسول الله ﷺ خمسين عاماً تُفتي الصّحابة في شؤون الدِّين.

قال الإمام الزّهري: «لو جُمع علمُ عائشةَ إلى علم جميع أزواج النّبيّ ﷺ وعلم جميع النّساء، لكان علم عائشة أفضل»[(١)].

وكم من مرّةٍ فزع كبار الصحابة إليها، ليسمعوا منها القول الفصل في أصول الدِّين ودقائق الكتاب المبين.

ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة عقلها في قضايا الدِّين فحسب، بل كان ذلك شأنها في رواية الشعر والأدب والتاريخ والطّبّ، وغير ذلك من العلوم المعروفة في عصرها، يشهد لذلك قول فقيه المسلمين عروة بن الزبير، إذ روى ابنه هشام قوله: «ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعرٍ من عائشة»[(٢)].

وفي صحيح مسلم أنها سمعتْ لحناً من ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، إذْ دار بينه وبين ابن عمّه حديث أمامها، فأنكرت عليه ذلك اللّحنَ، وفي ذلك يقول الإمام مسلم: «عن ابن عتيق قال: تحدثتُ أنا والقاسم

---

(١) الاستيعاب ٤/ ١٨٨٣، والإصابة ٨/ ١٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: حوادث سنة ٥٨، والسمط الثمين: ٨٢، والاستيعاب: ٤/ ١٨٨٥.

عند عائشة رضي الله عنها حديثاً، وكان القاسم لحّانةً، وكان لأمّ ولد، فقالتْ له عائشةُ: ما لك لا تُحدِّثُ كما يتحدَّثُ ابن أخي هذا؟ أما إنّي قد علمتُ من أين أتيت، هذا أدّبتْهُ أُمُّهُ، وأنتَ أدّبتْك أمُّكَ؟!»[١].

ومن الأحاديث التي طارت بها كتب الأدب عن علم عائشة الواسع أن عائشة بنت طلحة كانت في مجلس هشام بن عبد الملك، وفيه مشايخ بني أميّة، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلّا أفاضتْ معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلّا سمّتْهُ. فقال لها هشام: أمّا الأول، فلا أُنكرُهُ، وأمّا النّجوم، فمن أينَ لكِ؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة[٢].

كانت أم المؤمنين السّيّدة عائشة رضي الله عنها طلعةً ولعةً، لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا سألتْ عنه وراجعتْ فيه حتى تعرفه، وقد أدّى وجودها بقرب الرّسول ﷺ إلى أن تكون وعاءً من العلم.

روى الإمام البخاري في كتاب العلم عن أبي مُليكة: أن عائشة زوج النّبيّ ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا راجعتْ فيه حتى تعرِفَهُ، وأنّ النّبيّ ﷺ قال: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**» قالت عائشةُ: فقلتُ: أوليسَ يقولُ الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٣]. قالتْ: فقال: «**إنّما ذلك العرضُ، ولكنْ مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يَهْلَكْ**»[٤].

وكانت عائشة رضي الله عنها إلى جانب هذا العلم كله فصيحةَ اللّسان بليغةَ المقال، إذا تحدثتْ ملكت على النّاس مسامعهم، وأخذتْ بمجامع قلوبهم، وهذا ما دعا الأحنف بن قيس إلى القول: سمعتُ خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والخلفاء من بعدهم، فما سمعتُ الكلام من فمِ مخلوقٍ أفخمَ ولا أحسنَ منهُ مِنْ فِيْ عائشةَ رضي الله تعالى عنها. وقال موسى بن طلحة: «ما رأيتُ أحداً أفصح من عائشةَ»[٥].

---

(١) صحيح مسلم ٥/٤٦.
(٢) الأغاني ١٠/٥٧.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٨.
(٤) فتح الباري ١/١٩٦.
(٥) أخرجه الترمذي ٥/ ٣٦٤. وقال: حسن صحيح غريب.

ومن أعلام النّساء اللّواتي نَبغْنَ في العلم ابنةُ سعيد بن المسيّب، عالم عصره، الذي أبى أن يُزوِّجَ ابنتَهُ لابن أمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان، وزوّجها أحد تلامذته الصّلحاء الذين يتلقون عنه العلم، وهو عبد الله بن وداعة، فقد دخل عبد الله هذا على زوجته فإذا هي أجمل النّاس، وأحفظهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنّة رسول الله ﷺ وبحقوق الزّوجيّة، ولما أسفر الصّبحُ نهضَ عبد الله يُريد الخروج، فقالت زوجتُهُ: إلى أينَ؟ قال: إلى مجلس أبيكِ سعيد بن المسيّب، أتعلم العلم، فقالت: اجلسْ أعلِّمْكَ علمَ سعيدٍ. فمكث عبد الله شهراً لا يحضر حلقة العلم مستغنياً بعلم هذه الزّوجة الحسناء عن سماع أبيها، فهكذا فلتكنِ الزّوجات.

ومن هؤلاء العالمات النّابغات فاطمة بنت علاء الدّين السمرقندي مؤلف تُحفةَ الفقهاء، المتوفى سنة (٥٣٩). فقد كانت ابنتُهُ فاطمةَ فقيهةً علاّمةً، تفقّهت على أبيها وحفظتْ تحفتَهُ. وقد زوّجها والدها تلميذه علاء الدِّين الكاساني الذي برع في علمي الأصول والفروع، وصنّف كتابه العظيم «بدائع الصّنائع» وهو شرح تحفة الفقهاء، وعرضه على شيخه، ففرح به كثيراً، وجعله مهراً لابنته، التي طلبها جماعة من ملوك بلاد الروم، فامتنع والدها، وآثَرَ تلميذَهُ هذا عليهم، وقال الفقهاء في عصره: «شرح تحفتَهُ وزوّجه ابنته». وكانت قبل زواجها تشارك والدها الفتوى، فتخرج وعليها خطُّها وخطُّ أبيها.

فلما تزوجت صاحب البدائع كانت الفتوى تخرج وعليها خطُّها وخطُّ أبيها وخطُّ زوجها، وكان زوجها يُخطىء، فتردّه إلى الصواب[1].

فهذه صفحات نيّرة في تاريخ المرأة المسلمة في عهود الإسلام، يجب أن تجدّد على أيدي بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا، فالطريق مفتوح والأملُ يلوح في بروز مثيلات من تلك المسلمات الفاضلات العالمات الدّاعيات المرشدات المربيات.

(١) تحفة الفقهاء ١/ ١٢.

البحث الثاني:

المرأة المسلمة الرّاشدة الواعية وهدفها في الحياة

المرأة المسلمةُ الواعيةُ هدْيَ دينها تُؤمن إيماناً عميقاً بأنّها خلقت في هذه الحياة الدنيا لهدفٍ كبير، حدّده ربّ العزة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

فالحياةُ في نظر المرأة المسلمة الراشدة ليست في قضاء الوقت بالأعمال اليومية المألوفة، والاستمتاع بطيّبات الحياة وزينتها، وإنّما الحياة رسالة، على كل مؤمنٍ أن ينهضَ بها على الوجه الذي تتحقق فيه عبادته لله تعالى.

وهذا الوجه هو أن يستحضر النيّة في أعماله كلها أنّه يبتغي بها وَجْهَ الله، ويتحرّى مرضاتِهِ، ذلك أن الأعمال في الإسلام محصورة موقوفة على النّيّات، كما أكّدَ رسول الله ﷺ بقوله: **«إنّما الأعمال بالنّيّات، وإنّما لكلِّ امرىءٍ ما نوَى، فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى الله ورسولِهِ، ومَنْ كانتْ هجرتُهُ لدنيا يُصيبها، أو امرأةٍ ينكحُها، فهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه»**[٢].

ومن هنا تستطيع المرأة المسلمة أن تكون في عبادةٍ دائمة، وهي تقوم بأعمالها كلها، وهي تلتزم الإخلاص والصّدق، ما دامت تستحضر في نيّتِها أنّها تقوم بأداء رسالتها في الحياة، كما أراد الله لها أنْ تكون. إنها لفي عبادة وهي تبرّ والديها، وتُحسن تبعّل زوجها، وتعتني بتربية أولادها، وتقوم بأعبائها المنزلية، وتصل أرحامها، ما دامت تفعل ذلك كله امتثالاً لأمر الله، وبنيّة عبادتها إيّاه سبحانه. وإنّ أجلّ الأعمال التعبّدية التي تقوم بها المرأة المسلمة، هو نصرة دين الله في واقع الحياة، والعمل على تطبيق منهجه في حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.

وإنّ المرأة المسلمة الصادقة الواعية لهدْي دينها لتحسّ في أعماقها أنّ

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) متفق عليه: انظر شرح السنة ١/ ٤٠١.

عبادتها تبقى ناقصة، إذا هي قصّرت في هذا الجانب الحيوي من حياتها، وحياة المسلمين جميعاً، إذْ به يتحقق الهدفُ الكبير الذي خلق الله الجنَّ والإنسَ من أجله، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، الذي به وحده تتحقق عبادة البشر لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)].

وبه وحده يتحقق معنى: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» في واقع الحياة. ولقد أدركت المرأة المسلمة الأولى هذا المعنى إدراكاً عميقاً، تغلغل في أعماق نفسها، فإذا هي لا تقلّ عن الرجال اندفاعاً وتضحيةً وجرأةً في سبيل الله، بل إن بعض النّساء من سلف هذه الأمة تفوقْنَ على كثير من الرّجال في تلك الميادين.

فهذه أسماء بنت عُميْس، زوجة جعفر بن أبي طالب، تسارع إلى الإسلام مع زوجها، في أيام الإسلام الأولى، أيام الشدة والكرب والضّيق والابتلاء، وتخفّ إلى الهجرة معه إلى الحبشة على ما كان يكتنف تلك الهجرة من صعوبات ومشاقّ ومخاطر، محتسبة ذلك كله في سبيل الله ونصرة دينه، ولما قال لها عمر بن الخطاب ﷺ مُفاكهاً [أي ممازحاً]: يا حبشية سبقناكم بالهجرة، قالت - أي لعمر - لقد صدقتَ، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم، ويُعلّم جاهلكم، وكنّا البُعداء الطّردَاء. أمَا والله لآتينَّ رسول الله ﷺ فلأذكرنّ ذلك له، فأتتِ النّبيّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله إنّ رجالاً يغمزون علينا، ويزعمون أنّا لسنا من المهاجرين الأوّلين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بلْ لكُمْ هجرتَانِ، هاجرتم إلى أرض الحبشة ونحن مرهونون بمكة، ثم هاجرتم بعد ذلك إليّ**»![(٢)]. لقد أحسنت أسماء بنت عُميس في إقامتها الحجة على فضل المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، وانتزعت من رسول الله ﷺ تنويهاً بأنّ لهذه الثّلّة الكريمة فضل الهجرتين. وإنّه لشرف عظيم أن يكون لهم ذلك الفضل في المسارعة إلى نُصرة الرسول الكريم ﷺ، ومفارقة الأهل والأوطان في سبيل الله تعالى.

وفي بيعة العقبة التي تمت سرًّا تحت جنح الليل، وكان لها الأثر الأكبر في

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨٠.

نُصرة الرسول ﷺ، لم تغبِ المرأةُ المسلمة عنها، إذْ كان في وفد الأنصار امرأتان من ذوات الرأي والفضل والمكانة، هما نسيبة بنت كعب المازنيّة، وأم منيع أسماء بنت عمرو السلمية، أم معاذ بن جبل رضي الله عنه، التي شهدت غزوة خيبر مع رسول الله ﷺ، وكان لها فيها البلاء الحسن والمقام المحمود.

ولما صَدَعَ رسول الله ﷺ بدعوته، ودعا إلى التّوحيد الخالص ونبذ عبادة الأصنام، ضاق المشركون به ذرعاً، وائتمروا به ليقتلوه ليلاً في عُقر داره. وتكتّم المتآمرون وتعاقدوا وتعاهدوا على أن يبقى ائتمارهم بقتل النّبيّ سرًّا بينَهُمْ. ولم يستشفّ خبر هذا التآمر إلّا امرأة مسلمة نافت على المئة، هي رقيقة بنت صيفيّ. ولم يقعدها الهرم والضّعف على المسارعة لإنقاذ رسول الله ﷺ، فتحاملت على نفسها، وجاءته فحدّثته حديثَ القومِ، فبادَرَ إلى الهجرة لساعته، مغادراً أحبّ بلاد الله إليه، تاركاً ابن عمه عليًّا رضي الله عنه ينام في فراشه، ليُوهم المتآمرين المترصّدين المحيطين بدراه أنّه فيها، وليصرفهم عن تتبعه واغتياله في الطريق[1].

فأيُّ خدمةٍ أسدتها هذه المرأة العظيمة للإسلام والمسلمين؟ وأيّ جهاد قامت به لاستنقاذ حياة رسول الله ﷺ في أحلك الظروف التي واجهته، وأخطر المواقف التي مرّت بها دعوته الغرّاء.

ولمّا غادر رسول الله ﷺ وصاحبه مكّةَ، وتواريَا عن الأنظار في الغار الجاثم على قمة جبل ثور، كانت تحمل إليهما الطعام والماء وأخبار القوم المترصّدين صبيّةٌ ناشئة، هي أسماء بنت أبي بكر الصّديق رضي الله عنهما.

كانت هذه الفتاة المسلمة الفذّة تقطع المسافة الطويلة بين مكة وجبل ثور في جوف الليل، لم يثنها عن مهمتها وحشة الطريق، وصُعوبة المسلك، وترصّد الأعداء، لأنها كانت تعلم أنّ في استنقاذ رسول الله ﷺ وصاحبه، وإنجاح مقصدهما ووصولهما إلى دار الهجرة، نصرةً لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وإظهاراً للحق وجنده، ومن ثمّ كانت تقوم بمهمتها الصعبة هذه كل يوم، ماشيةً متخفّيةً

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥، والإصابة ٨/ ٨٣

حذرةً مترقّبةً، فتصعد قمّةَ الجبل، حتى تُوافي رسول الله ﷺ وصاحبه بما تحمل من زادٍ وأخبار، ثم تعود أدراجها إلى مكة تحت رداء اللّيل الأسود البهيم(١).

ولم تكن هذه المهمة التي يعجز عنها أشداء الرجال كل ما أدّته أسماء نحو دينها ونصرة رسوله، بل تعرضت لمحنة قاسية، ثبتت فيها ثبات الجبال الرّاسيات، يوم أحاط بها رجال من المشركين، يسألونها عن أبيها، فأنكرت أمره، وتجاهلت خبره، فأمعنوا في الشّدة عليها، حتى أن أبا جهل لطمها لطمةً أطارت قِرْطها من أذنها، فلم يُوهنْ ذلك من عزيمتها، ولم يفلّ من غرب تصميمها على الاحتفاظ بسرّها المكنُون، ومضت تقوم بمهمتها تلك حتى جاء اليوم الموعود لمغادرة الرّسول ﷺ وصاحبه الغار إلى المدينة، وكانت قد وافتهما بزاد السفر. ولما دنت ساعة الرحيل نهضت لتربط سفرة الزّاد [أي ما يُحمل فيه الزّاد] فلم تجد شيئاً تربط به سوى نطاقها، فقالت ذلك لأبيها، فقال: شقّيه باثنين فاربطيه: بواحد السّقاء، وبالآخر السّفرة، ففعلتْ، ولذلك سُميّتْ بذات النّطاقين(٢).

لقد كانت نصرة دين الله، والالتحاق بركب دعوته، تدين المرأة المسلمة في صدر الإسلام، إذ كان الإيمان يعمر قلوبَ المسلمات غضًّا طرياً دفّاقاً، فلا يُطقْنَ أن يُقمنَ في ديار الكفر بعيداً عن بشاشة الإسلام وسماحته ونورانيته، كنّ يهاجرن في رفقة أزواجهنّ، إن كان لهنّ أزواج، وخروجهن للهجرة كخروج الرجال التماساً لطاعة الله ونُصرةً لدينه.

كانت هناك قضية يؤمنّ بها كما يؤمن الرجالُ، ويضحينَ في سبيلها كما يُضحي الرّجالُ وهذا الإيمان بالقضية هو الذي حمل أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي مُعَيْط على الهجرة إلى المدينة وحدها في مدّة صلح الحديبية، وهي المدة التي كان العهد فيها بين الرّسول ﷺ والمشركين أنّ مَنْ جاء منهم مسلماً إلى الرّسول ردّه إليهم. وقد أوفى رسول الله ﷺ بعهده وردّ رجلين إليهم. فلما وصلت أم

---

(١) سيرة ابن هشام: الهجرة إلى المدينة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٢٣٣، ٢٤٠.

كلثوم إلى المدينة قالت للرسول ﷺ: «إنّي فررتُ إليكَ بديني، فامنعني، ولا تردّني لهم، يفتنوني ويعذّبوني، ولا صبر لي على العذاب، إنّما أنا امرأة وضعف النّساء إلى ما تعرف، وقد رأيتُكَ رددتَ رجلين، فقال: «**إنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد نقض العهدَ في النّساء**»[1].

لقد علم الله صدق إيمان أم كلثوم بنت عُقبة ابن أبي مُعيط وغيرها من المهاجرات اللواتي لم يُخْرجهنّ إلّا حبُّ الله ورسوله والإسلام، فأنزلَ الله فيهنّ قرآناً يُتْلَى، ينقض به العهد الذي كان بين الرسول والمشركين في النّساء خاصّةً، وينهى عن ردهنّ إلى المشركين بعد امتحانهنّ، والتأكّد من أنّهنّ ما خرجن لزوج ولا مال ولا دنيا، وإنّما خرجن حبّاً لله ولرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[2].

ومن النّساء الفضيلات السّابقات إلى نُصرة الإسلام ورسوله ﷺ أمُّ الفضل بنتُ الحارث، لُبابةُ، شقيقةُ ميمونة أمِّ المؤمنين لأمها وأبيها، فقد كانت المرأة الثانية في الإسلام، إذ أسلمت بعد خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت سنداً وعوناً وأُنساً لرسول الله ﷺ.

كانت زوجاً لعمه العباس بن عبد المطلب، تقف على الطرف النقيض لزوج عمه أبي لهب أم جميل بنت حرب، فهذه كانت حمّالة الحطب، كما وصفها القرآن الكريم، في جيدها حبلٌ من مسد، من شدة إيذائها رسول الله ﷺ وتلك كانت من أسرع مناصريه ومؤيّديه والمضحّين في سبيل نصرة دينه، في أشدّ أيام المحنة والضّيق التي مرّ بها المسلمون الأُوَل.

كانت هي وزوجها العباس وأبناؤها يكتمون إسلامهم بأمرٍ من رسول الله ﷺ وتخطيطٍ حكيم مدروسٍ، ليتعرفوا على أسرار المشركين، ويوافوا رسول الله ﷺ بها. ولمّا دارتْ معركةُ بدر بينَ المسلمين والمشركين، وجاءت الأخبار بهزيمة

---

(١) أحكام النّساء لابن الجوزي: ٤٣٩.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

قريش، أوصت أم الفضل بنيها ومولاها أبا رافع أن يكتموا فرحتهم بتلك الهزيمة، اتقاءَ شرِّ المشركين، وخصوصاً أبا لهب الذي كان يتنزّى حقداً وكراهية وكيداً لمحمد ﷺ وصحبه ودعوته. ولكن مولاها أبا رافع لم ينج من بطش أبي لهب، إذْ أبْدَى فرحته بانتصار المسلمين، فاستشاط غيظاً وصبّ جام غضبه على المولى المسكين، وضربه على مرأى من سيدته أمّ الفضل.

هنالك انتفضت أم الفضل كاللبؤة، وانقضت على أبي لهب صائحةً: استضعفته إذ غاب عنه سيِّدُهُ؟ وضربتْهُ بعمود من أعمدة البيت فشجّتْ رأسَهُ شجّةً عميقةً قاتلةً، لم يعش بعدها إلّا سبع ليال.

وصبرت أم الفضل على فراق زوجها العباس في سبيل الله ونصرة دينه يوم أصدر الرسول الكريم أمره ببقاء زوجها في مكة وهجرتها إلى المدينة. وطال هذا الفراق، وكان مُمضّاً مؤلماً قاسياً، أمضت أم الفضل أيامه ولياليه صابرةً محتسبةً مستعينةً بالصّيام والصّلاة مرتقبةً قدوم زوجها الحبيب إلى المدينة بانتهاء مهمته في مكة. وطال غيابه حتى كان آخر المهاجرين إلى المدينة. وما كان يخفف من لوعة فراقها زوجها إلّا رؤيتها ولدها الكبير عبد الله يُلازم النّبيّ ﷺ وينهل من معين هديه اللّآلىء، ويقتبس كل يوم قبسات من نوره الوضاء. وما كان يدور في خلدها أن التاريخ كان يعدها لتدخله من أوسع أبوابه، فتكون الأمَّ العظيمة لحبر الأمّة الإسلامية وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومن السّابقات إلى الإسلام والمضحيات المستهينات بما أصابهنّ في سبيله من عذاب وتنكيل وآلام: سُميّة، أم عمار بن ياسر. كان بنو مخزوم إذا اشتدّتِ الظّهيرة والتهبت رمال الصحراء، خرجوا بها هي وابنها وزوجها إلى العراء، فأهالوا عليهم الرمال المتقدة وألبسوهم الدروع المحمّاة، ورضخوهم بالحجارة الصّلدة، حتى تفادى ابنها وزوجها العذاب الشديد بكلمة توافق المشركين، نطقاها مكرهين، وفيهما وفي أمثالهما نزل قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

أمّا سمية، فاعتصمت بالصبر، وأبت أن تُرضي المشركين بكلمة، فما كان من النذل أبي جهل إلا أن طعنها بحربة فاضتْ بها روحُها الطاهرة! وسجلها التاريخ بمداد من نور: أوّل شهيد في الإسلام.

وفي تاريخ الإسلام كثيرات غير سميّة احتملن فوق ما احتملت من عذاب في سبيل نصرة الإسلام، فما وهنت لهنّ عزيمةٌ، ولا فلَّ من غرب صبرهنّ تنكيل، بل تقبّلنَ ما نزلَ بهنَّ من عذاب، صابراتٍ راضياتٍ محتسباتٍ، لا يعطين دنيّةً في دينهنّ، ولا يتذللن مستعطفاتٍ طالباتِ الرحمة بهنّ، حتى إنّ رواة السّير روَوْا أنّ المستضعفين من الرجال - إلاّ بلالاً رضي الله عنه - اضطروا إلى استبقاء أنفسهم من الموت بكلمة تُرضي الظلمة الطُّغاة، ولم يروُوا عن امرأة من المسلمات المستضعفات الصابرات شيئاً من ذلك. بل إن هذا النمط الفذّ من النّساء المسلمات كُنّ يستعذبن العذاب في سبيل الله وإعزاز دينه، ولا يفتأْنَ يدعونَ إلى الإسلام غير آبهاتٍ بما يلقين في طريق دعوتهن من أشواك وآلامٍ ومحنٍ.

وفي حديث أم شريك القرشية العامرية الذي رواه ابن عباس الشّاهد الحيّ على تألّق جذوة الإيمان في نفوسهنّ، والاندفاع في طريق الدعوة إلى الله، والصبر على ما يلقين في هذا الطريق من عذابٍ ونَصَبٍ ولُغُوبٍ.

قال ابن عباس: وقع في قلب أم شريك الإسلام، وهي بمكة، فأسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًّا، فتدعوهُنّ وترغبهُنّ في الإسلام، حتى ظهر أمرُها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا لها: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، ولكنّا سنردّك إليهم. قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء موطّأ ولا غيره، ثم تركوني ثلاثاً، لا يطعموني ولا يسقوني. قالت: فما أتتْ عليّ ثلاثٌ حتى ما في الأرض شيء أسمعه وكانوا إذا نزلوا أوثقوني في الشمس، واستظلّوا، وحبسوا عنّي الطّعام والشّراب حتى يرتحلوا.

ولم تكتف المرأة المسلمة بهذه المشاركة الصّادقة في نُصرة الإسلام والتضحية في سبيله، بل إنّها تقدمت للغزو مع الرّسول ﷺ وصحابته في عديدٍ من

المعارك، حينما بدأت المواجهة المسلحة بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، وقامت بأعمال حميدة مشهودة من إعداد القِراب، وملئها بالماء، ونقلها وسقي المجاهدين، وتضميد الجرحى، وحمل القتلى إلى خارج أرض المعركة، ولم تتوانَ في ساعات الشّدّة عن حمل السلاح وخوض غمار الحرب إلى جانب رسول الله ﷺ وصحبه.

ولقد وردت أحاديث كثيرة في صحيحي البخاري ومسلم، تُجلّي الصورة المشرقة للمرأة المسلمة في خير القرون، يوم كان الإسلام يعيش في قلبها غضاً طريّاً بحبّ الله ورسوله وعزّة هذا الدِّين.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام مسلم عن أم عطية الأنصارية، قالتْ: غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبعَ غزواتٍ، أخلفهم في رحالهم، فأصنعُ لهم الطّعامَ، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى[(١)]. وعن أنس بن مالك، قال: «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء، ويُداوين الجرحى»[(٢)]. ويروي الإمام البخاري عن الربيع بنت معوّذ قولها: «كُنّا مع النّبيّ ﷺ نسقي ونداوي الجرحى، ونردّ القتلى إلى المدينة»[(٣)].

ومما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم أُحُد انهزم الناس عن النّبيّ ﷺ وأبو طلحة بينَ يدي النّبيّ ﷺ مجوّبٌ عليه بحجفة [أي مترس عنه بترس ليقيه سلاح الكفار]. قال: وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع [أي راشد الرمي]. وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً. قال: فكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول: انثرها لأبي طلحة. قال: ويشرف نبيّ الله ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبيَّ الله، بأبي أنتَ وأمّي، لا تُشْرِفْ لا يُصبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دونَ نحرِكَ! قال: ولقد رأيتُ عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنّهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما [أي خلاخيلهما] تنقلان القِرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٩٤.
(٢) صحيح مسلم ١٢/ ١٨٨.
(٣) فتح الباري، ج ٦/ ٨٠.

تفرغانه في أفواه القوم. وقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إمّا مرتين وإمّا ثلاثاً من النّعاس.

فأيّ عملٍ جليلٍ كانت تقومُ به هاتان السيّدتان الكريمتان المجاهدتان في إطفاء غلّة المجاهدين وإرواء أكبادهم الظمأىٰ، وهم في ساحة المعركة الضارية الضروس، في الجوّ الحارّ اللاهب المعروف في بلاد الحجاز إذ كانتا تنتقلان في الساحة المحتدمة، غير آبهتينِ لانهمار النّبل ولا لمقارعة السّيوف.

هكذا كانت المرأة في صدر الإسلام من الكرامة والشهامة، والمنزلة الرفيعة والمكانة العظيمة.

البحث الثالث:

المرأة المسلمة لا تصدّق الخرافات ولا الكهنة

إنّ المرأةَ المسلمةَ الواعيةَ الراشدةَ بعيدةٌ كلَّ البُعْدِ من لَوْثَةِ الخُرافات والأساطير والخزعبلات التي تعشش عادة في أذهان الأمّيّات الجاهلات من النّساء، بل إن المرأةَ الواعيةَ هَدْيَ دينها لتعتقد أنّ الركون إلى أهل البدع والخرافات والأساطير والكهانة والسحر من الكبائر التي تُحبط عملَ المؤمنِ، وتُهدّدُ آخرتَهُ. فقد روى مسلم عن بعض أزواج النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**مَنْ أتَى عرّافاً فسألَهُ عن شيءٍ، لم تُقبلْ له صلاةُ أربعين ليلة**»(١).

وروى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**مَنْ أتى كاهناً فصدّقَهُ بما يقولُ، فقدْ بَرِيءَ ممّا أُنْزِلَ على محمّدٍ**»(٢).

وتاريخُ الكهانةِ تاريخٌ أسودَ قاتم، وهو مسلك من مسالك الشياطين، شياطين الجنّ والإنس، يُضلُّون بها الغافلين والغافلات والجاهلين والجاهلات،

(١) صحيح مسلم ١٤/ ٢٢٧ كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكُهّان.
(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود ٤/ ٢١ في كتاب الطب، باب: في الكاهن.

فيُوقعونهم في أعظم جريمةٍ هي جريمة الشّرك بالله تعالى، فمن يعتقد أنّ أحداً يعلم الغيب، أو أنّه قادر على إحداث الخوارق، فقد أشرك بالله تعالى، وكفر بأنبيائه، لأن منهج الكُهّان مناقض ومخالف لمنهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام.

ولقد عبَّد الشيطانُ الكُهّانَ والسّحرةَ وأتباعَهم غيرَ الله تعالى، وصرفهم عن اتّباع هديه، والتزام طاعته.

ولقد كانت الكهانة والسّحر وما زالتَا منزلقاً نحو الضّلال والفساد والانحلال، فلقد سمعنا الكثير عمّا يفعله الكُهّانُ والسّحرة بأتباعهم من الزّيغ والضلال، وعلى الأخص النّساء، حيث يرغمونهنّ على فعل الفاحشة، أو على أقل تقدير التّعري أمام الكاهن أوالسّاحر أو المشعوذ، ليرى تسليمها له، ولو طلبها للحرام، ومن هنا كان مجرّد الذهاب إليهم معصيةً كبيرةً من كبائر الذّنوب.

ولا بدّ من كشف حقائق هؤلاء المضلّين للناس عامّةً وللنساء خاصّةً، وذلك لتجنُّبِ أخطارهم والحذرِ من ضلالهم.

إنّ الكُهّان والسّحرةَ لا يصلون إلى ما يطلبونه من شياطينهم حتى يقوموا بما يُرضيهم من الكفر والإلحاد بآيات الله تعالى، ومن تدنيسٍ لحرمات الله تعالى - والعياذ بالله تعالى - فهذه الحقيقة التي يعتمد عليها الكُهّان والسّحرة، وإن ظهروا بصورة الشّيوخ والزّهاد والصّالحين، فإنّ جميع ذلك من أنواع النّفاق، والصّور الخادعة، لتضليل الناس.

ولقد أصبح التّوجّهُ إلى السحر والسّحرة، والكُهّان والكهانة في هذا العصر منذراً بالخطر، وتفاقمت خطورتها بحيث لا يجوزُ السّكوتُ عن هؤلاء، فلا بدّ من التّحذير منهم أشدَّ التّحذير، لتوقّي أخطارهم.